

# الوطن

سورية يومية سياسية مستقلة

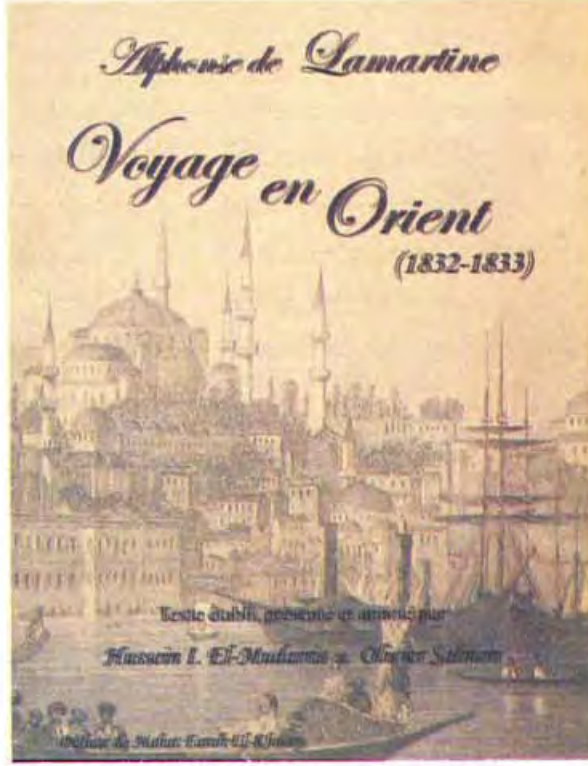
العدد ٩٠٨ - السنة الرابعة | الناشر | الشركة العربية السورية للنشر والتوزيع | الموافق ١١ جمادى الآخرة ١٤٣١ هـ | العدد - ٩٠٨ - السنة الرابعة | الناشر | الشركة العربية السورية للنشر والتوزيع

## «ألفونس دي لامارتين» ورحلته إلى الشرق

مهارة فرح الخوري



«ألفونس دي لامارتين»



من «لامارتين»؟ ولماذا يبعث من جديد اليوم؟

«رحلة إلى الشرق» «سفر ثمين»، ثمرة جهد كبير، ذكي، للبحّانة المفكر «حسين عصمت المدرّس» الحلبي ولادة ونشأة، والعالمي ثقافة واطلاعاً.. و«أوليفي سالمون» الباحث الفرنسي خريج جامعة السوربون الشهيرة، ربما جاز لي أن أدعوه بالمستشرق أو المستعرب.

أما اهتمامهما بالشاعر الفرنسي الشهير «لامارتين» وإصدار كتاب يتناول ذكريات، أفكاراً ومشاهد، وتاريخاً لرحلة شاعر، صحفي، سياسي وأيضاً مؤرخ على طريقته الخاصة، لقد جاء طبيعياً، اعترافاً بفضل هذا الشاعر على الفكر والآداب والأهم، لفت العالم الغربي، إلى واقع الشرق، من الإنسان إلى الطبيعة إلى الآثار إلى العقائد والديانات، كل ذلك من خلال مشاهدات، كان لها أكبر الأثر في الرحلة الفرنسية، فتلورت بأسلوب شائق وفكر نير، وأداء لطيف معبر. «ألفونس دي لامارتين» المولود في عام ١٧٩٠ شمال مدينة «ليون» الفرنسية، عاش في جو ريفي، محاطاً بعائلة أرسقراطية تحترم التقاليد والأعراف، وفي هذه البيئة ونتيجة تجربة حب مؤلمة كتب مجموعته الشعرية «تأملات» في عام ١٨٢٠. ونتيجة «تأملاته» أصبح «لامارتين» شاعراً مشهوراً جداً. وفي عام ١٨٢١ شرع بزيارة الأماكن المقدسة في الشرق مهد المسيحية، وزار مع زوجته وابنته، اليونان وفلسطين وسورية ولبنان، وبعودته إلى بيروت فقد ابنته «جوليا» وعبر عن أمه العميق بقصائد كتبها عام ١٨٣٤، وفي عام ١٨٣٥ ألف كتاباً «الرحلة إلى الشرق».

جاء في مقدمة الكتاب: إن زيارة الشاعر الكبير كوّنت عنصر إباء واعتزاز وطني... «إذا ما قدم رجل عظيم كالذي عرفناه إلى الشرق، فإن هذه المنطقة المدهشة تستحق التقائاً واهتماماً جماعياً بل كلي».

تجدر الإشارة إلى أن «لامارتين» هو أولاً الشاعر الكلاسيكي الذي نرس في مدارسنا، وثمة أجيال متتابعة من فرانكوفونيين قادرة على إلقاء قصيدة «البحيرة» عن ظهر قلب، القصيدة التي تصف بحيرة «ليمان» في «جنيف».

الشاعر هو أيضاً دبلوماسي ورحّالة لا يتعب، لا يكل ولا يمل، مدفوع لشواطئ جديدة في بحر المتوسط قبل أن يرشق المرساة ليؤلف «رحلة للشرق».

إعادة نشر هذا «العمل- المؤلف» يحملنا على تذوق المتعة التي لا نهاية لها في صفحات الحب هذه... وفي القرن التاسع عشر للاستشراق، وعدد كبير من الرحالة قدموا إلى سورية، وفلسطين ولبنان، ساروا على خطا السيد المسيح، والشخصيات الإنجيلية، تأملوا واستمتعوا بأثار تدمر، وبعليبك، هذه المدينة الأثرية ذائعة الصيت.

وإذا ما أتهم المستشرقون مراراً - وربما خطأ - أنهم جواسيس وأن هدفهم الوحيد يكمن في وضع اليد الغربية على المقاطعات أو المناطق العربية للإمبراطورية العثمانية، علينا أن نقر أن هؤلاء الرحّالة هم أولاً، أناس راغبون في الانفتاح على آفاق جديدة. فيعقدون صلات صداقة مع السكان، ويعودون إلى بلدانهم حاملين ذكري حسن الضيافة الشرقية، والمناظر الخلابة، وحضارة غنية وثقافة مميزة راقية، ورفيعة.

«لامارتين» لم يكن حتماً جاسوساً، فهو ينتمي إلى هذه النخبة الأوروبية المثقفة التي انضوت تحت تقليعة أو بدعة «الرحلة إلى الشرق» وكان هدف الشاعر المبدع الرئيس «مشاهدة الناس ومحبتهم» والاعتناء بالاتصال مع الآخر، عقد صلات معه مسلماً كان أم مسيحياً، والاعتناء بتحقيق القول الإنجيلي «أحبوا بعضكم بعضاً».

خلافاً للأحكام الأوروبية المسيقة، اكتشف لامارتين في الشرق تسامح الإسلام، والعيش السلمي المشترك بين المسيحيين والمسلمين.

ومن هنا تبرز أهمية نشر أشعار «لامارتين» وأقواله ووضعها في أيدي أكبر عدد من القراء، وخاصة فرانكوفونيين، ونشر أو إذاعة هذا التوق العالمي للسلام والوفاق والوثام بين الشعوب، وهذه حاجة، تتعدى الضرورة في عصرنا هذا. الإنتاج الذي قدمه لنا الباحثان «حسين المدرّس» و«أوليفي سالمون» يستجيب بدقة مع هذه الضرورة، بل يحققها.

ومنذ سنوات، يجهدان، من خلال نشاطاتهما المتنوعة: «معارض، مسرحيات، منشورات، مؤلفات ومحاضرات.. إلخ، في جعل حوار الثقافات والحضارات عملية واقعية، لا مفر منها.

وأكثر من ذلك، أستبعد أحياناً كلمة «حوار» وأراها تقارباً، وتجاوباً، وتفاهماً. إن العلاقات التي عقدت بين هولندا وسورية العثمانية في القنصلية الفرنسية في حلب في القرن السابع عشر، وإنتاج الباحثين «حسين» و«أوليفي» لم ولن يتوقف، عن إرساء جسور بين أوروبا والعالم العربي، بالروح والفكر المطروحين من قبلهما هما نفسهما حركة مشاعر وأفكار «لامارتين»، ولا يحق لنا أن نتناسى الجانب العلمي والموضوعي لأبحاثهما، فهما يزيان نتائجهما بلمسة فنية وأشعار لا مثيل لها.

هذه هي ملامح مؤلف «رحلة للشرق» المزيّن بلوحات فنية من القرن التاسع عشر، مستعارة من مقتنيات حسين المدرّس والتي منحت الكتاب نكهة خاصة ولمحة ساحرة فائقة، يضاف إليها صور شخصية للشاعر الفرنسي الشهير والأمكنة التي ولد وعاش فيها، والأمكنة التي زارها، ورحلاته العديدة وخاصة للشرق. «ألفونس دي لامارتين» عاش حياة غنية في الإنتاج والإبداع الأدبي وتبوأ مراكز دبلوماسية أدبية اجتماعية مهمة ولا عجب أن يصدر كتاب من نتاج ابن حلب البار والفرنسي أوليفي، يذكرنا برحلة لامارتين إلى الشرق- ربما (المنسية لدى الأكرية)- إذ لم تكن فقط رحلة لاكتشاف الأطلال والأوابد الأثرية، أو سيراً على خطا نصوص الكتاب المقدس الكتابية، في فلسطين، وفي سورية وتركيا، بل هي أيضاً رحلة مشاعرية شعرية فلسفية اطلاعية- بل مرشدة- تخلد ابنته «جوليا»، وفي الوقت نفسه هي اكتشاف للسلطة العثمانية والإسلام، وبالأحرى هي لقاء إنساني بسكان المنطقة من جميع الديانات والطوائف والانتعاشات.

ولي أن أشير إلى قول سجّله واضعاً الكتاب: «إن مسيحية «لامارتين» العقلانية وانفتاحه للإسلام، كلّفته انتقادات هائلة في تلك الحقبة، ويمكننا أن نقول بدقة إن هذا التسامح وهذه الإرادة لتحطيم الحواجز بين الديانتين، تبرر إعادة طباعة «رحلة للشرق» مزيّنة بصور ونقوش، متنوعة طبعت في القرن التاسع عشر. كتاب «ألفونس دي لامارتين» به ٤٩٥ صفحة يتناول موضوعات شتى وأبواباً عدة: المقدمة، التعريف، قصة حياة لامارتين، طفولته- شبابه، السنوات الأخيرة، دون إغفال بداياته الأدبية، مراكزه الدبلوماسية، رحلاته، نجاحاته، الخلفيات السياسية، مبررات رحلاته إلى الشرق، حلب سورية وكل ما يتداخل فيها،

من سكان وفئات بشرية.

وصفه لكل بقعة من بقاع الشرق ولكل إنسان التقاه، يستحق سبر أغواره من القارئ.

لم يترك زاوية، بقعة، أثراً، حرقة، عاملاً، فناناً، لباساً، زياً، حضرياً كان أو قروياً، فلاحاً... إلا وتوقف عنده وأعطانا وصفاً دقيقاً وصوراً واضحة له.

«لامارتين» أثار إعجابي في يفاعتي وشبابي، أما اليوم فأقف مع الإعجاب والفضول والشغف لمعرفة المزيد.. من خلال المؤلف الغني الذي أحفنا به الباحثان حسين عصمت المدرّس وأوليفي سالمون، والذي أعادني بالذاكرة للثقافة والآداب الفرنسية من خلال باب مفتوح على مصرعيه، وأيضاً إلى كل شبر من أسواق حلب ودمشق، من خلال وصف دقيق جميل ومثير كان استوقف «لامارتين» الشاعر الأديب المبدع.. الفريد من نوعه، مرفقاً بالترميزات والرسوم والصور المنقولة عن الأصل بدقة وعناية.

### الكتاب سفر أمين صادق

ولذا أجد مناسباً أن أختم مقالتي هذا بقول للشاعر «لامارتين» ذكره المؤلفان:

«لا يمكنني أن أودع ذاتي دون حنين واعتراف بالجميل لهؤلاء الرجال البسطاء والمستقيمين، المخلصين والكرماء، الذين أدوا لي خدمات، فوجهوني، رافقوني، حرسوني، قدموا لي العناية كما لو كانوا إخوة لي، كما برهنوا لي أثناء صروف الزمن وتقلباته، وخلال ثمانية عشر شهراً من الترحال في أرض غريبة، أن لكل الديانات أخلاقها الإلهية، ولكل الحضارات فضيلتها، ولدى كل الرجال الشعور بالصحيح والعدل والجيد والجميل، مطبوعة هذه بشتى الأشكال بيد الخالق في قلوبهم».

كتاب «ألفونس دي لامارتين» «رحلة للشرق» سفر شائق، جميل مفيد، يقرأ بفضول ومحبة، ويعيدنا إلى تاريخ يلقننا دروساً للحاضر والمستقبل.

«لامارتين» لم يمت، حاضر بيننا..

وللباحثين حسين عصمت المدرّس وأوليفي سالمون كل الشكر والامتنان على هذا الإنجاز بعد سبعة إصدارات مهمة من العطاء الفكري والتاريخ بلادنا الحبيبة ولسواها من بلدان العالم.